تحية إلى حسين البرغوثي

غسان زقطان*

لا أستطيع الكتابة عن حسين البرغوثي

لا أدري كيف اهتدى حسين البرغوثي إلى ذلك البيت في قرية "أبو قش" شمالي رام الله؛ بيت من الحجر غير المهذب، بشرفة مزججة على الطراز الذي انتشر في منطقة القدس ورام الله في ستينيات القرن الماضي، وبطبقة واحدة تصعد إليها عبر درب ضيق وطويل من الشارع الرئيسي الذي يخترق القرية، ويلتصق ظهره (البيت) بالجبل حيث تطل صخور رمادية تتخللها تربة حمراء رطبة، وتصل الأعشاب ونباتات شوكية قصيرة وعقارب وكائنات الجبل إلى نوافذه الخلفية.

عندما وصلنا إلى رام الله (مروان جيلاني، وأنا) بعد البدء بتطبيق اتفاق أوسلو، لم يكن جيش الاحتلال قد انسحب من المدينة بعد، وكانت حواجزه ودورياته لا تفارق شوارعها ومداخلها والقرى المحيطة بها، بينما تحتل قيادته مبنى "المقاطعة" الذي كان يضم سجناً وغرفاً للتحقيق. ولم تكن البطاقات الجديدة التي حصلنا عليها (هوياتنا)، والصادرة من أريحا وغزة باللغتين العربية والعبرية، تخوّلنا دخول المنطقة، وكان حصولنا الموقت على ذلك البيت بمثابة هدية تسمح لنا بالاقتراب والتسلل إلى المدينة.

لم أسأل حسين كيف اهتدى إلى البيت، وكيف دفع الباب بثقة في تلك الليلة من خريف سنة ١٩٩٤. وقف في مدخل الشرفة الأمامية المزججة، والضوء القادم من إنارة الشارع يتخلل شعره الطويل الأشقر فيعطيه لوناً ذهبياً مضاعفاً. للوهلة الأولى كانت ضجة سيارة "الخنفساء" الألمانية المتهالكة التي أنصتنا إليها في الداخل بقلق، والتي تشبه إلى حدّ بعيد ضجة سيارات دوريات "حرس الحدود" الاحتلالي، ووقوفها أمام المنزل، ثم انفتاح الباب وهيئة الشاب المتين الأشقر الذي ظهر من دون مقدمات، كلها كانت حركات متتابعة مثل جملة تواصل اكتمالها من دون توقف، فيها من الحدس أكثر كثيراً من المعرفة:

أبحث عن غسان زقطان، قال الشاب الذي يقف أمام الباب تحت ضوء الشارع الأصفر.

هكذا التقيت حسين البرغوثي للمرة الأولى.

* شاعر فلسطيني.

وهكذا انفتحت فجأة، مثل ضربة سعيدة من الحظ، صداقة عميقة مختلفة، تواصلت بحيوية حتى عشية رحيله في أيار/مايو ٢٠٠٢ قبل يومين من عيد ميلاده الثامن والأربعين.

بين تلك الليلة من خريف سنة ١٩٩٤، حين دفع حسين الباب الحديدي للمنزل في قرية "أبو قش" شمالي رام الله، البيت الذي أعارنا إياه صديق إعلامي إلى حين ترتيب أمورنا، وليلة رحيله في غرفة مزدحمة ومضاءة في المشفى الذي قضى فيه أيامه الأخيرة خلال اجتياح الجيش الإسرائيلي للضفة الغربية واحتلال رام الله في ربيع سنة ٢٠٠٢، تنهض ثمانية أعوام.

بين حركة يديه التي دفعت الباب في ذلك المنزل، ويدي التي دفعت العربة التي وضعنا عليها جسده الهادىء في طريقنا عبر شارع ضيق عرضة لطلقات القناصة إلى ثلاجة الموتى في مشفى رام الله، تكمن تلك المصافحات والتلويحات والضحك وإشارات الإقناع والتوضيح، من تقويم شولخوف ودفعه نحو القرن التاسع عشر في روسيا، وتقريب شكسبير ودفعه نحو القرن الواحد والعشرين، والمقارنة بين تسيلان ومحمود درويش، ودفع أميخاي خارج الحسابات وخارج المقارنة ـ كان جندياً في جيش احتلال ـ وتسكين بيالك في ثلاثينيات القرن، والبحث عن ممرات بين كفافيس وغينسبرغ، بين المصير الإنساني الممتلىء بالمرح والبهجة والموت والمغامرة والمرض والضعف عند أنكيدو، وبين مصير جلجامش المعزز برعاية الآلهة. أين تكمن مغامرة الآلهة وأي أسئلة يملكونها؟ المغامرة والسؤال هما أمور بشرية خالصة.

لم أستطع الكتابة عن حسين البرغوثي. في حياته كنت منشغلاً بحواراتنا ومشاريعنا التي لا تنتهي ولم تكتمل، وفي مرضه كنت منشغلاً عنه بقلقي وخوفي عليه، وفيما بعد إحساسي الذي لم يفارقني إلى الآن بالخسارة. حتى تلك المقدمة القصيرة التي أنجزتها لكتابه "الضوء الأزرق" في طبعته الكبرى التي تجاوزت الثلاثة ملايين نسخة ضمن مشروع اليونسكو "كتاب في جريدة"، كانت أقرب إلى تأمل مؤلم وخاص في عشائه الذي لم يمسّه ليلة رحيله.

لم ننهِ النص المسرحي مع فرنسوا أبو سالم، والذي وضعنا له دراسات، وبنينا حوله مكتبة ومراجع لإنجازه في قراءة مختلفة لملحمة جلجامش. الفصل الخاص من النسخة السومرية كان الأرضية التي سينطلق منها النص، كنا (فرنسوا، وأنا) إلى جانبه في الأيام الأخيرة، كان يستيقظ بين غيبوبتين ليواصل الحديث عن النص بصفاء غريب، ونحن نصغي.

لم نتفق مع المنتج السينمائي الإيطالي الذي أراد أن ينتج فيلماً سينمائياً عن رواية غسان كنفاني "عائد إلى حيفا"، لأنه اقترح اسماً ثالثاً لكاتب إسرائيلي. كان اللقاء مع المنتج والمخرج الإيطاليين في مطعم صغير في رام الله محبطاً تماماً، انتهت الفكرة بالنسبة إلينا، حتى عندما عاد المنتج إلى رام الله بعد أيام وهو يحمل اسم "إسحق لاؤور" اليساري اليهودي المعادي للصهيونية كحل وسط. وبقي احتمال أن يتحرك السيناريو عبر خطين متوازيين: مصير غسان ومصير دوف، أفكاراً صغيرة على ثلاث صفحات من دفتر ملاحظات أزرق. غادر السينمائيان المطعم الصغير، وبقيت سيارة غسان الصغيرة واقفة أمام مبنى غامض في

بيروت. تذكّر المشهد من جديد في أيامه الأخيرة، بينما كنفاني يواصل السير نحو السيارة التي ستنفجر بعد قليل.

واصل الحديث حتى دخوله في غيبوبته الأخيرة عن قلقه إزاء وجود "ثرثرة" يمكن حذفها في الفصل الأخير من "سأكون بين اللوز".

المناوب أمام الثلاجات كان شاباً من الشمال. بدا مرهقاً في تلك الصبيحة المبكرة، وقد استغرق وقتاً ليدرك وصول عربة "العمليات" التي استعرناها من المشفى المجاور، ويتبيّن الجسد المغطى بشراشف بيضاء انحسرت عنه في أكثر من مكان. كانت أصوات جنازير دبابات "الميركافا" الثقيلة تصل بوضوح وهي تذرع الشوارع حول "دوار المياه" المجاور للمشفى قبل أن تتفرق نحو أحياء المدينة.

خلفنا مباشرة كان عمال يواصلون حفر قبر جماعي لشهداء الأسبوع الماضي الذين تراكموا في الثلاجات، في حديقة تابعة للمشفى تحت أشجار سرو معمرة.

بدا الأمر برمته مقحماً من كابوس وخارج المكان: أصوات الحفر وهدير الدبابات وطلقات القنص تتقاطع مع محاولة مناوب ثلاجات الموتى المرهق بلامبالاته الخاصة البحث عن مكان شاغر لميت جديد، ثم، وبالحياد نفسه، إفراغه إحدى الثلاجات من أكياس خضار وخبز، يبدو أنه احتفظ بها هناك خلال الحصار، ليفسح مكاناً لحسين.

في اليوم التالي لزيارته في المنزل الحجري، أخذني بسيارته الغريبة عبر قرية "برهام" إلى "حرش جيبيا" كي نشاهد القطعان الصغيرة للغزلان وهي تعبر بهيئاتها القلقة كروم الزيتون ومصاطب الزراعات الحقلية في منحدرات التلال.

لم تظهر الغزلان في ذلك اليوم ولا في الأيام التي تلته، وبدا عليه الحزن والإحساس بالخذلان، كان يأخذ الأمر على نحو شخصي تماماً.

فيما بعد، بعد أعوام، كنا نهبط من "بير زيت" نحو قرية "جفنا" لنشاهد تحضيرات "مهرجان المشمش" الخاص بهذه القرية المسيحية، وكنا نتحدث عن ثعالب الجبال، عندما قفز من كرم زيتون على جانب الطريق، وفي إحدى الانعطافات، غزال، وقف في وسط الطريق ونظر نحونا طويلاً، كأنما يؤكد حضوره ونفوذه الخاص في هذه التلال، ثم عاد من حيث أتى.

ركنّا السيارة إلى جانب الطريق، وهبطنا في محاولة لتتبّع أثر الغزال أو بقية القطيع في انحدار الكروم، لكنه كان قد اختفى تماماً، وبالنسبة إلى حسين فإن الأمر أخذ منحى سعيداً، وبدا كأن المشهد برمته تجمّع من أجله.

كنت أفكر في هذا أمام سعادة حسين وهو يحدق في المنحدر بحثاً عن أثر الغزال الذي جاء من أجله ليحدق فيه مثل نبوءة، وأنا أتابع حارس ثلاجات الموتى في مستشفى رام الله وهو يوسع له مكاناً بين أكياس الخضار والخبز، بينما يواصل أحد تلاميذه لملمة الشرشف الأبيض حول جسده على العربة. ■